مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٤٠) مارس ٢٠١٦م ص ص: ١٢٥- ١٣٦
جامعة سوهاج
كلية الآداب

نقد ابن الجوزي للمحدثين والفقهاء في كتابه (تلبيس إبليس)

عــرض و دراســة

د. محمد عويس عبد الرحيم محمود (*)

المقدمة:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى محمد – صلى الله عليه وسلم– وبعد،

فإن السنة النبوية تعد المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله –عزَّ وجلّ–، وهي الأصل الثاني من أصول الدين الحنيف، فيها صلاح الفرد والمجتمع.

وقد بذل السلف الصالح من العلماء جهوداً مُضنية مشكورة في خدمة السنة النبوية، فدرسوا رواتها وبحثوا أحوالهم، وصنفوا مصنفات عديدة، جمعوا فيها كل ما ورد عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من قول أو فعل أو تقرير.

ويُعد العلامة ابن الجوزي–رحمه الله– من أبرز العلماء الذين أفنوا أعمارهم في خدمة السنة النبوية، فتصدى للوضاعين والمدلسين وكشف زيفهم وبيَّن أحوالهم في مصنفاته.

ومن بين هذه المصنفات كتابه العظيم (تلبيس إبليس) الذي قدَّم فيه نقداً موسعاً لطائفة المحدثين أو المشتغلين بالحديث في عصره، فبين ما كان عليه حالهم، وكشف جهل وغرور وتكبر بعضهم. وهذا جهد محمود لابن الجوزي –رحمه الله– يكشف لنا عن غيرته على السنة النبوية وإخلاصه لله ورسوله، وقدرته على تفنيد الأقوال والآراء، وفهمه لدقائق الأمور في المجتمع من حوله.

ومن ثمَّ رأيت أن يكون موضوع بحثي هذا بعنوان (نقد ابن الجوزي للمحدثين و الفقهاء في كتابه "تلبيس إبليس" عرض ودراسة) رغبة مني في إبراز هذا الجهد للعلامة ابن الجوزي، وتذكيراً للمشتغلين بهذين العلمين في عصرنا الحديث؛ ليتجنبوا تلك الأدواء التي أصيب بها علماء القرن السادس الهجري – المعاصرون لشيخنا ابن الجوزي – رحمه الله– وكانت سبباً في توجيه سهام نقده لهم.

وتقوم هذه الدراسة على المنهج الوصفي الذي يُعنى بوصف الظواهر النقدية موضوع البحث، وكذا المنهج التحليلي في دراسة وتحليل في تلك الانتقادات التي وجهها ابن الجوزي للمحدثين والفقهاء.

وقد اقتضت مادة البحث طبيعة المنهج أن يأتي البحث في مقدمة موجزة، وثلاثة مباحث ، وخاتمة على النحو التالي :

المبحث الأول: ابن الجوزي وكتابه "تلبيس إبليس" وفيه مطلبان :

المطلب الأول : سيرة ابن الجوزي .

المطلب الثاني : منهج ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) .

المبحث الثاني: نقد ابن الجوزي للمحدثين في كتابه "تلبيس إبليس"

المبحث الثالث : نقد ابن الجوزي للفقهاء في كتابه " تلبيس ابليس ".

الخاتمة : ذكرت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج ، وأهم ما يمكن أن يُقدَّم من توصيات قد تُفيد المشتغلين بهذين العلمين الشريفين .

وفي النهاية الله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به ويكون في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون.

(*) مدرس منتدب بقسم الدراسات الإسلامية بكلية الآداب بالوادي الجديد – جامعة أسيوط.

المبحث الأول: ابن الجوزي وكتابه تلبيس ابليس

المطلب الأول : سيرة ابن الجوزي

هو عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حُمَّادي- بضم الحاء المهملة وتشديد الميم وفتحها- بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق- خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم[١]

فالواضح من سلسلة نسبه المتصلة أنه ذو أصل عريق ونسب شريف، إذ ينتهي نسبه إلي أشرف الخلق وأكرمهم بعد رسول الله -صلي الله عليه وسلم- أبي بكر الصديق-رضي الله عنه- وهذا شرف ما بعده شرف. كثيراً ما تباهي به ابن الجوزي.

كني بأبي الفرج وبهذا عُرف واشتُهر. كما لقب بجمال الدين،[٢]غير أنه اشتُهر بابن الجوزي نسبة إلى جدَّه الأكبر "جعفر بن عبد الله" وهو الجد التاسع، الذي لُقب بالجوزي ثم توارث بنوه هذا اللقب من بعده. [٣]

أصل نسبة الجوزي: بفتح الجيم وسكون الواو وفي وآخرها الزاي.. اختلف المؤرخون في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأول: إنَّ جده جعفر نُسب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها (جوزة)[٤]

الثاني: قيل: إنَّ جده جعفراً نسبه إلى محلة بالبصرة تُسمى (محلة الجوز)[٥]

والثالث: قيل: إنَّ جده جعفراً كانت في داره بواسط (جوزة) لم يكن بواسط سواها. [٦]

ولد ابن الجوزي بدرب حبيب في بغداد، واختلف في تاريخ ولادته فقيل: سنة ثمان وخمسمائة. وقيل: سنة تسع وخمسمائة. وقيل: سنة عشر وخمسمائة أو قبلها. [٧]

ذكر ابن رجب الحنبلي بعد أن عرض لخلاف المؤرخين حول تاريخ مولد ابن الجوزي: "ووجد بخطه: لا أحقق مولدي، غير أنه مات والدي في سنة أربع عشرة، وقالت الوالدة: كان لك من العمر نحو ثلاث سنين.." [٨]

توفي والده ولم يتجاوز من العمر ثلاث سنوات، وكان والده موسراً وترك له مالاً كثيراً يُقدَّر بالآلف، يقول ابن الجوزي في كتابه لفتة الكبد لابنه: "واعلم يا بني أنَّ أبي كان موسراً وخلَّف ألوفاً من المال"[٩]

١- انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان /جـ٣ / ١٤٠، وتاريخ الإسلام للذهبي/ ج ٤٢ وفيات ٥٩١ – ٦٠٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير/ جـ ١٣ /٣٤ وما بعدها ، وطبقات المفسرين للداودي/ جـ ١ / ٢٧٥- ٢٧٦، وشذرات الذهب/ جـ ٦ /٥٣٧ وما بعدها

٢- وفيات الأعيان / ج ٣ / ١٤٠ ، وسير أعلام النبلاء / ج ٢١ / ٣٦٥

٣- تذكرة الحفاظ/ جـ٤ / ١٣٤٢

٤- راجع: الذهبي/ سير أعلام النبلاء/ جـ ٢١/ ٣٧٢

٥- راجع: شذرات الذهب/ جـ٥٣٧/٦

٦- راجع: تذكرة الحفاظ / جـ ٤/ ٩٢، طبقات المفسرين للداودي جـ/ ١ /٢٧٦، طبقات الحافظ للسيوطي/ ص ٤٨٠

٧- يمكن مراجعة هذه الأقوال في : وفيات الأعيان / ج ٣ / ١٤٢ ، والبداية والنهاية / ج ١٣/ ٣٤ ، وشذرات الذهب / ج ٦ / ٥٣٧

٨- ابن رجب الحنبلي/ الذيل على طبقات الحنابلة/ جـ ١/ ٤٠٠

٩- ابن الجوزي/ لفتة الكبد/ ص ٥٦

وقد تميزت الفترة التي عاشها ابن الجوزي من سنة ٥١٠ه إلى سنة ٥٧٩ه بوجود اتجاهين متضادين؛ نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية – تقول آمنة نصير " اتجاه إلى كبت الفكر وطمس المعرفة والضيق بكل رأى مبناه العلم والحقيقة ، واتجاه نقيض له يفتح الطريق أمام الثقافات على اختلافها ويعطي كل ذي رأى فرصة إظهار رأيه والدفاع عنه ."[١]

صفاته وأخلاقه :

نشأ ابن الجوزي نشأة طيبة، حيث ألقته والدته في أحضان العلماء والمحدثين والفقهاء، فشب على تعلم العلم والتفقه فيه، وكان لهذه النشأة أثرها البارز في صفاته وأخلاقه منذ صغره.

ومن أبرز ما وصف به ابن الجوزي ما قاله موفق الدين عبد اللطيف: "كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيذ المفاكهة..."[٢]

وقال عنه سبطه أبو المظفر: "... ما مازح أحد قط، ولا لعب مع صبي، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلّها"[٣]

آثاره ومصنفاته:

ابن الجوزي عالم موسوعي، له تصانيف عديدة في شتى فنون العلم، حيث يصعب على الدارسين أن يلحقوه في صنف معين من العلوم برز فيه، فهو مفسر، محدث، لغوي، أديب، واعظ، فقيه، مؤرخ، وشاعر... إلخ.

قال عنه ابن خلكان: "كان علاَّمة عصره، وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ، صنف في فنون عديدة"[٤]

وقال الذهبي: "الواعظ المتفنن، صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم، من التفسير والحديث والفقه والوعظ والأخبار والتاريخ وغير ذلك.. وعظ من صغره، وفاق فيه الأقران، ونظم الشعر المليح، وكتب بخطه ما لا يوصف، ورأى من القبول والاحترام ما لا مزيد عليه"[٥]

وقال عنه –أيضاً–: "كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهاً، ويُسهب ويُعجب، ويطرب ويطنب، لم يأتِ قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس، وحسن السيرة، وكان بحراً في التفسير، علاَّمة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً عليماً بالإجماع والاختلاف"[٦]

أما عن مصنفاته فكثيرة جداً، وقد تصدى الباحث العراقي الأستاذ عبد الحميد العلوجي لهذا الموضوع فألف كتاباً في مؤلفات ابن الجوزي، وضبطها في دليل نقدي مقارن، ورتبها على حروف المعجم مع ذكر طبعاتها وأماكن وجود المخطوط منها، وبلغ عددها (٤٠٢) مؤلَّف، وقد نشرته وزارة الثقافة والإرشاد ببغداد برقم (٩) من سلسلة الكتب الحديثة.

١- آمنة نصير / أبو الفرج ابن الجوزي وآراؤه الكلامية والأخلاقية / ص ٣٠
٢- تذكرة الحفاظ / ج ٤ / ٩٥
٣- سير أعلام النبلاء / ج ٢١ / ٣٧٣
٤- وفيات الأعيان/ جـ ٣ /١٤٠
٥- العبر في خبر من غبر/ جـ٣ /١١٨ -١١٩
٦- سير أعلام النبلاء/ جـ ٢١/ ٣٦٧

ولعل أهم مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير، وتلبيس إبليس، وصيد الخاطر، وفنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، والتحقيق في اختلاف الحديث، وصفوة الصفوة، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، والذهب المسبوك في سير الملوك، وذم الهوى، وأخبار الحمقى والمغفلين، والأذكياء، وأخبار الظراف والمتماجنين، وتقويم اللسان، ولفتة الكبد في نصيحة الولد...إلخ.

وفاته:

توفي ابن الجوزي – رحمه الله– ليلة الجمعة في الثاني عشر من شهر رمضان المبارك سنة سبع وتسعين وخمسمائة (٥٩٧هـ)، وقد أجمعت المصادر على أنَّ يوم وفاته كان يوماً مشهوداً ببغداد، إذ نودي بالصلاة عليه في جانبي بغداد يوم الجمعة، فحضر كوكبة من الفقهاء والعلماء والأكابر، وتقدَّم في الصلاة عليه ولده الأسن أبو القاسم، وحمل الناس جنازته إلى جامع المنصور فصُلِّيَ عليه مرة ثانية، ثم حُمل إلى مقبرة باب حرب (محلة ببغداد يقال لها الحربية) فدفن هناك عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد بن حنبل.

قال ابن كثير عن هذا اليوم: "وكان يوماً مشهوداً حتى قيل: إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام وشدة الحر"(١)

وقد أوصى –رحمه الله– أن يُكتب على قبره:

يا كثير الصفح عمن * كثر الذنب لديه

جاءك المذنب يرجو الـ * ـعفو عن جرم يديه

أنا ضيف وجزاء الـ * ـضيف إحساناً إليه

تلك هي رحلة الإمام ابن الجوزي في الحياة، وهي بلا شك رحلة عامرة بالعلم والتعليم والوعظ والإرشاد، والتأليف، فقد استطاع ابن الجوزي –رحمه الله– أن يُدلي بدلوه في شتى فنون العربية وآدابها.

المطلب الثاني : منهج ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس)

أما كتابه "تلبيس إبليس" فيدور موضوعه حول تلبيس إبليس على الخلق وغرورهم به على مختلف فئاتهم وطوائفهم وطبقاتهم.

ويقصد ابن الجوزي بالتلبيس: إظهار الباطل في صورة الحق. (٢) وبيَّن أنَّ الغرور –غرور الخلق بإبليس– نوعٌ من الجهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً، والرديء جيداً، وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك.(٣)

أما عن هدفه من تصنيف هذا الكتاب فذكره في مقدمته بقوله: "فرأيت أن أحذِّر من مكايده، وأدل على مصايده، فإن في تعريف الشر تحذيراً من الوقوع فيه"(٤)

وقال –أيضاً– : "وقد وضعت هذا الكتاب محذراً من فتنه، ومخوفاً من محنه، وكاشفاً عن مستوره، وفاضحاً له في خفي غروره"(٥)

١- البداية والنهاية/ جـ١٣ /٣٣ ، وتذكرة الحفاظ / ج ٤ /٩٥ ، ووفيات الأعيان / ج ٣ / ١٤٢

٢- ابن الجوزي/ تلبيس إبليس/ تحقيق: أيمن صالح شعبان/ ص ٤٦، دار الحديث/ القاهرة سنة ٢٠٠٣م.

٣- تلبيس إبليس/ ص ٤٦

٤- تلبيس إبليس / ص١٠ المقدمة/

٥- تلبيس إبليس / المقدمة/ ص١٠

قسَّم ابن الجوزي –رحمه الله– كتابه إلى ثلاثة عشر باباً يقول: "وقد قسمته ثلاثة عشر باباً، ينكشف بمجموعها تلبيسه، ويتبين للفطن بفهمها تدليسه، فمن انتهض عزمه للعمل ضجَّ منه إبليسه"[١]

قدَّم في الأبواب الأربعة الأولى فرشاً وتوطئة لموضوع التلبيس، حيث ذكر فيها: الأمر بلزوم السنة والجماعة، ثم ذم البدع والمبتدعين، ثم التحذير من فتن إبليس وكائده، وختم الأبواب الأربعة ببيان معنى التلبيس والغرور.

ثم ذكر في الأبواب التسعة الباقية تلبيس إبليس في العقائد والديانات، ثم تلبيسه على العلماء في مختلف فنون العلم، ثم تلبيسه على الولاة والسلاطين، ثم تلبيسه على العُبَّاد في فنون العبادات، ثم تلبيسه على الزهاد، ثم تلبيسه على الصوفية، ثم تلبيسه على المتدينين بما يشبه الكرامات، ثم تلبيسه على العوام، وختم كتابه بالباب الثالث عشر وعرض فيه لتلبيس إبليس على الكل بطويل الأمل.

يتضح لنا من منهج ابن الجوزي –رحمه الله– أنه منهج تكاملي، يجمع فيه بين التنظير والتطبيق، حيث سار على بيان الشبه التي يلبس بها إبليس على جميع الطوائف، وقدَّم صور التلبيس هذه بالتحليل والنقد وبيان بطلانها شبهةً شبهةً، معتمداً في تفنيدها على أدلة الكتاب والسنة.

ونقدم فيما يلي عرضاً للانتقادات التي وجهها ابن الجوزي لطائفتي المحدثين والفقهاء في عصره .

المبحث الثاني: نقد ابن الجوزي للمحدثين في كتابه (تلبيس إبليس)

قسم ابن الجوزي المحدثين الذين استغرقوا أعمارهم في سماع الحديث، والرحلة فيه وجمع الطرق وطلب الأسانيد العالية والمتون الغريبة إلى قسمين:

القسم الأول: وهم الذين "قصدوا حفظ الشرع بمعرفة صحيح الحديث من سقيمه"[٢] وهؤلاء قد شكر لهم ابن الجوزي قصدهم وسعيهم بقوله: "وهم مشكورون على هذا القصد"[٣]

ولكنه وجه لهم انتقادات عديدة منها: انشغالهم بجمع الأحاديث عما هو فرض عين، فقال: "إلا أن إبليس يلبس عليهم بأن يشغلهم بهذا عما هو فرض عين من معرفة ما يجب عليهم، والاجتهاد في أداء اللازم، والتفقه في الحديث"[٤]

وفي سبيل ذلك عقد مقارنة بين علماء زمانه وبين العلماء السابقين كيحيى بن معين والبخاري ومسلم، موضحاً أنَّ هؤلاء العلماء جمعوا بين الفقه في أمور الدين وطلب الحديث و"أعانهم على ذلك قصر الإسناد، وقلة الحديث، فاتسع زمانهم للأمرين"[٥]

أما في زمان ابن الجوزي فإنَّ "طرق الحديث طالت، والتصانيف فيه اتسعت"[٦] وعلى هذا كان من الصعب على المحدث أن يجمع بين الفقه والحديث.

١- تلبيس إبليس/ المقدمة/ ص١١
٢- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١١٨
٣- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١١٨
٤- انظر: تلبيس إبليس / ص١١٨
٥- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١١٨
٦- انظر: تلبيس إبليس / ص١١٨

ومنها – أيضاً- عمل بعضهم بالحديث المنسوخ، يقول: "فإن أفلح أحدهم، ونظر في حديثه، فربما عمل بحديث منسوخ"(١)

ومنها – أيضاً- فهمهم الخاطئ لمراد الحديث والعمل به، يقول: "وربما فهم من الحديث ما يفهم العامي الجاهل، وعمل بذلك، وليس بالمراد من الحديث"(٢)

وذكر مثالاً على ذلك قائلاً: "أنَّ بعض المحدثين روى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : (أنَّه نهى أن يسقي الرجل ماءه زرع غيره) (٣) فقال جماعة ممن حضر: قد كنا إذا فضل عنا ماء في بساتيننا سرحناه إلى جيراننا، ونحن نستغفر الله. فما فهم القارئ ولا السامع، ولا شعروا أن المراد: وطء الحبالى من السبايا"(٤)

ومنها – أيضاً- جهل بعضهم في الفتوى نتيجة لقلة مخالطة الفقهاء، وذكر مثالاً لذلك قائلاً: "لما قلَّت مخالطته للفقهاء كان لا يفهم جواب فتوى، حتى إنه قد أخبرنا أبو منصور البزار، نا أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، قال: سمعت البرقاني يقول: قال أبو بكر الأبهري الفقيه: كنت عند يحيى بن محمد بن صاعد فجاءته امرأة فقالت: أيها الشيخ ما تقول في بئر سقطت فيه دجاجة فماتت، فهل الماء طاهر أو نجس؟ فقال يحيى: ويحك. كيف سقطت الدجاجة إلى البئر؟ قالت: لم تكن مغطاة. فقال يحيى: ألا غطيتها حتى لا يقع فيها شيء. قال الأبهري: فقلت يا هذه إن كان الماء تغير فهو نجس، وإلا فهو طاهر." (٥)

ومنها – أيضاً- الإقدام على الفتوى بنوع من التخليط، فقال: "وقد كان فيهم من يقدم على الفتوى بالخطأ، لئلا يُرى بعين الجهل، فكان فيهم من يصير بما يفتي به ضُحكة"(٦)

وذكر ابن الجوزي –رحمه الله- مثالين على هذه الانتقادة، الأولى: أنَّ بعضهم سُئل عن مسألة في الفرائض، فكتب في الفتوى تُقسم على فرائض الله-سبحانه وتعالى- .

والثاني: أنَّ امرأة جاءت إلى علي بن داود – وهو يحدث وبين يديه مقدار ألف نفس- فقالت له: حلفت بصدقة إزاري، فقال لها: بكم اشتريته؟ قالت: باثنين وعشرين درهماً، قال: اذهبي فصومي اثنين وعشرين يوماً، فلما مرت جعل يقول: آه. آه غلطنا والله، أمرناها بكفارة الظهار. (٧)

وعلَّق ابن الجوزي على هاتين القصتين بقوله: "فانظروا إلى هاتين الفضيحتين، فضيحة الجهل، وفضيحة الإقدام على الفتوى بمثل هذا التخليط"(٨)

١- انظر: تلبيس إبليس / ص ١١٨

٢- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١١٨- ١١٩

٣- حسن أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب النكاح ، باب في وطء السبايا ، حديث رقم (٢١٥٨) وروايته " حدَّثنا النُّفيليُّ، حدَّثنا محمدُ بنُ سلمة، عن محمد بن إسحاق، حدثني يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ، عن أبي مرزوقٍ، عن حَنَشٍ الصنعانيِّ عن رُوَيفع بن ثابت الأنصاري، قال: قام فينا خطيباً، قال: أما إنِّي لا أقولُ لكُم إلا ما سمعتُ رسولَ الله - صلَّى الله عليه وسلم - يقولُ يومَ حُنَين، قال: "لا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِنُ بالله واليوم الآخر أن يَسْقِيَ ماءَه زَرعَ غيرِه - يعني إتيانَ الحَبالى - ولا يَحِلُّ لامرئٍ يُؤمِنُ بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي حتى يستبرئها، ولا يَحِل لامرئٍ يُؤْمِنُ بالله واليومِ الآخر أن يَبيعَ مغنماً حتى يُقسَمَ"

٤- انظر: تلبيس إبليس/ ص١١٩

٥- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١١٩، وقد أورد الحافظ الذهبي هذه القصة في ترجمة ابن صاعد. [انظر: تذكرة الحفاظ/ جـ٢ /٧٧٦]

٦- انظر: تلبيس إبليس/ ص١٢٠

٧- انظر: تلبيس إبليس / ص١٢٠

٨- انظر: تلبيس إبليس / ص١٢٠

أما القسم الثاني من المحدثين فوجه إليهم انتقادات أهمها: أنهم "قوم أكثروا سماع الحديث، ولم يكن مقصودهم صحيحاً، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق، وإنما كان مرادهم العوالي[١] والغرائب[٢] فطافوا البلدان ليقول أحدهم: لقيت فلاناً، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري، وعندي أحاديث ليست ليست عند غيري."[٣]

وعلى هذا فقد كان هدفهم المباهاة والاستعلاء، وقد قادتهم محاولة الانفراد بغريب الحديث إلى إخفاء الحديث، مما قد يؤدي إلى وفاة الشخص دون أن يذكر الحديث.

والنقد الثاني الموجه لهؤلاء المحدثين هو "قدح بعضهم في بعض طلباً للتشفي، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذب عن الشرع، والله أعلم بالقاصد." [٤]

وآخر سهام النقد التي وجهها ابن الجوزي لهؤلاء المحدثين هو "رواية الحديث الموضوع من غير أن يبينوا أنه موضوع، وهذه جناية منهم على الشرع، ومقصودهم ترويج أحاديثهم وكثرة رواياتهم، وقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (من روى عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين) [٥] "[٦]

إذا أمعنا النظر في انتقادات ابن الجوزي لمحدثي عصره يمكن أن نخرج منها بعدة قضايا تستحق تسليط الضوء عليها ؛ لشيوعها– أيضاً– في عصرنا ، منها :

أولاً : اهتمام بعض الدارسين بحفظ المتون فقط والتباري فيما بينهم باستظهارها دون التفقه في مقاصدها الشرعية ، وتطبيقاتها على أرض الواقع في حياتنا الاجتماعية المعاصرة .

ثانياً : الفهم الخاطىء لمراد النصوص النبوية ، فمن الخطباء والوعاظ من لا يدركون خطورة ذلك الأمر ، فيجتزىء الواحد منهم جملة من سياق الحديث ويستدل بها على قضية في سياق آخر .

ثالثاً : إقدام كثير من الدارسين والخطباء والوعاظ على الفتوى دون التمكن من أدوات الفتوى وآداب الإفتاء ، فغدت مجتمعاتنا ساحة مفتوحة للفتاوى المغلوطة المرتكزة على الأحاديث المنسوخة أو المقيدة بسبب ورود خاص وبأفراد معينين .

١- يقصد الأسانيد العالية ، والإسناد العالي هو الذي قلَّ عدد رجاله ، وهو قسمان : مطلق ونسبي ، فأما المطلق فهو القرب من النبي – صلى الله عليه وسلم - ، فإن كان سنده صحيحاً كان الغاية القصوى . وأما النسبي فهو القرب من إمام ذي صفة عليّة كشعبة وغيره ، وفيه أقسام . وقسمه ابن طاهر المقدسي وتبعه ابن الصلاح إلى خمسة أقسام وهى مُفصلة في كتب المصطلح .[ينظر : التقييد والإيضاح للعراقي / ص ٢٣٩ – ٢٤٥ ، ونزهة النظر لابن حجر / ص ١٥٦ – ١٥٧ ، وتدريب الراوي للسيوطي / ج ٢ / ١٦١- ١٦٩] .

٢- الغرائب : جمع غريب ، قال ابن حجر : الغريب ما يتفرد بروايته شخص واحد في أى موضع وقع التفرد به من السند، وينقسم إلى غريب مطلق ، وغريب نسبي . [ينظر : نزهة النظر / ص ٧٠ – ٧١] والغريب منه ما هو صحيح ، ومنه ما ليس بصحيح وذلك هو الغالب على الغرائب .قال أحمد بن حنبل : لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير وعامتها من الضعفاء .[ينظر : التقييد والإيضاح / ص ٢٥٦ – ٢٥٧ ، و تدريب الراوي / ج ٢ / ١٨٠ – ١٨٣] .

٣- انظر: تلبيس إبليس/ ص١٢٠

٤- انظر: تلبيس إبليس/ ص١٢١

٥- صحيح أخرجه مسلم في المقدمة باب وجوب الرواية عن الثقات وترك الكذابين والتحذير من الكذب على رسول الله – –صلى الله عليه وسلم-

٦- انظر: تلبيس إبليس/ ص١٢٢

رابعاً : نهم بعض الوعاظ والخطباء والدارسين – دون قصد – في الترويج للأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وهم في ذلك يتطلعون إلى نقل أخبار أو قصص أو أقوال يتفردون بها عن أسلافهم وأقرانهم؛ إرضاء للعامة أو ترويجاً لأفكارهم التي يؤمنون بها ويسعون لحمل الناس عليها .

ولا شك في خطورة تلك الآفات على الفرد والمجتمع المسلم ، يتساوى في ذلك الخطر الداهم عصرنا مع عصر ابن الجوزي ، ولنكون منصفين هناك أناس في عصرنا والعصور المتأخرة قد حملوا على عواتقهم أمر حفظ السنة النبوية ونشرها والعمل بتعاليمها وآدابها ، ويتصدون لكشف المدلسين والوضاعين ولم يكونوا أبواقاً لترديد الأغلاط والأكاذيب ، وهؤلاء النفر هم من يشرفون بلقب الدعاة – جزاهم الله خيراً – .

المبحث الثالث: نقد ابن الجوزي للفقهاء في كتابه (تلبيس إبليس)

قرّر ابن الجوزي بداية أن فقهاء عصره المتأخرين أقل حظاً في العلم بالقرآن والسنة عمن سبقهم من الفقهاء الأوائل، فقال: "كان الفقهاء في قديم الزمان من أهل القرآن والحديث، فما زال الأمر يتناقص حتى قال المتأخرون: يكفينا أن نعرف آيات الأحكام من القرآن، وأن نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث، كسنن أبي داود ونحوها، ثم استهانوا بهذا الأمر –أيضاً– وصار أحدهم يحتج بآية لا يعرف معناها، وبحديث لا يدري أصحيح هو أم لا، وربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح، ولا يعلم لقلة التفاته إلى معرفة النقل.

وإنّما الفقه استخراج من الكتاب والسنّة فكيف يستخرج من شيء لا يعرف، ومن القبيح تعليق حكم على حديث لا يدرى أصحيح هو أم لا؟[١]

ومن وجوه النقد التي وجهها ابن الجوزي للفقهاء" أنَّ جل اعتمادهم على تحصيل علم الجدل. [٢] طلباً للمفاخرات والمباهاة "[٣] وكانوا يركزون على كبار المسائل الصغيرة " وربما لم يعرف الحكم في مسألة صغيرة تعم بها البلوى"[٤]

وقد قادهم الاعتماد على الجدل إلى: إدخال أقوال الفلاسفة في الفقه، وتفضيلهم للقياس على الحديث المستدل به في موضوع ما؛ ليوسعوا دائرة الجدل، وهجرهم للأسلوب الوعظي الذي يُطهر القلوب لتنهض لطلب الآخرة، وعدم إطلاعهم على سير السلف للتأدب بأخلاقهم، وقادهم الاعتماد على الجدل –أيضاً– إلى "أنهم اقتصروا على المناظرة، وأعرضوا عن حفظ المذهب" حتى غدا الفقيه يُسأل عن حديث أو آية فلا يدري. [٥]

١- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١٢٣.
٢- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١٢٣. وعلم الجدال : عرَّفه ابن خلدون بأنه " معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ... يقف المتناظران عند حدودهما في الرد والقبول " [ينظر : مقدمة ابن خلدون /تحقيق : خليل شحادة / ج ١ / ٥٧٨ – ٥٧٩ / ط . الثانية / دار الفكر – بيروت / سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م]
٣- انظر: تلبيس إبليس / ص ١٢٣.
٤- انظر: تلبيس إبليس / ص ١٢٣.
٥- انظر: تلبيس إبليس / ص ١٢٣- ١٢٤.

وبيَّن ابن الجوزي حقيقة المجادلة والمناظرة عند العلماء السابقين بقوله: " المجادلة إنما وضعت ليستبين الصواب، وقد كان مقصود السلف المناصحة بإظهار الحق، وقد كانوا ينتقلون من دليل إلى دليل، وإذا خفي على أحدهم شيء نبه الآخر؛ لأن المقصود إظهار الحق"[١]

وبيَّن أن الهدف من المناظرة في عصره هو إظهار النفس والرياسة، وقد يقودهم هذا إلى رد الحق مع معرفتهم به نتيجة للمكابرة ورفض انتصار الخصم يميلون عن الحقيقة ويرفضونها، وقد سلمهم أسلوب المناظرة إلى تساهلهم في الغيبة، والفتوى دون بلوغ مرتبتها، والإفتاء بما يخالف النصوص. [٢]

وختم ابن الجوزي هذه المسألة ببيان منهج السلف الصالح نحو: إبراهيم النخعي، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل في عدم تساهلهم في الفتوى واندفاعهم إليها وكانت هذه سجية فيهم لخشيتهم الله – عز وجل– وخوفهم منه. [٣]

ومن الانتقادات التي وجهها للفقهاء – أيضاً– " مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم، وترك الإنكار عليهم، مع القدرة على ذلك، وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه؛ لينالوا من دنياهم عرضاً؛ فيقع بذلك الفساد"[٤]

ووضح ابن الجوزي أن الفقهاء بفعلهم هذا يكونون سبباً للفساد من ثلاثة أوجه هي: "الأول: الأمير يقول: لولا أني على صواب لأنكر عليَّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيباً وهو يأكل من مالي، والثاني: العامي أنه يقول: لا بأس بهذا الأمير ولا بماله ولا بأفعاله فإن فلاناً الفقيه لا يبرح عنده، والثالث: الفقيه فإنه يفسد دينه بذلك"[٥]

وختم ابن الجوزي حديثه في المسألة بقوله: "وفي الجملة فالدخول على السلاطين خطر عظيم؛ لأن النية قد تحسن في أول الدخول، ثم تتغير بإكرامهم وإنعامهم، أو بالطبع فيهم ولا يتماسك عن مداهنتهم، وترك الإنكار عليهم." [٦]

ومن هذه الانتقادات – أيضاً– أن الفقيه " يأكل من وقف المدرسة المبنية على المتشاغلين بالعلم، فيمكث فيها سنين، ولا يتشاغل، ويقنع بما عرف"[٧]

والوقف "إنما جعل لمن يتعلم، إلا أن يكون ذلك الشخص معيداً أو مدرساً، فإن شغله دائم"[٨]

ومنها – أيضاً– وقوع بعض الفقهاء في المعاصي "فبعضهم يلبس الحرير، ويتحلى بالذهب، ويحتال على المكس فيأخذه، إلى غير ذلك من المعاصي." [٩]

وبنى – كذلك– أن سبب وقوع هؤلاء في المعاصي مختلف "فمنهم من يكون فاسد العقيدة في أصل الدين، وهو يتفقه ليستر نفسه، أو ليأخذ من الوقف، أو ليرأس، أو ليناظر، ومنهم من عقيدته صحيحه لكن

١- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١٢٤.
٢- انظر: تلبيس إبليس/ ص ١٢٤- ١٢٥.
٣- انظر: نفسه/ ص ١٢٥.
٤- انظر: نفسه/ ص ١٢٥.
٥- انظر: نفسه/ ص ١٢٥- ١٢٦.
٦- انظر: نفسه/ ص ١٢٦.
٧- انظر: نفسه/ ص ١٢٦.
٨- انظر: تلبيس إبليس / ص ١٢٦.
٩- انظر: تلبيس إبليس/ ص١٢٧.

يغلبه الهوى، وحب الشهوات، وليس عنده صارف عن ذلك؛ لأن نفس الجدل والمناظرة تحرك إلى الكبر والعجب." (١)

ومنها – أيضاً– أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ علمه وفقهه يدفع عنه، ولكن علمه يكون حجة عليه، يقول ابن الجوزي: "ومنهم من يلبس عليه إبليس: بأنك عالم وفقيه ومُفتٍ، والعلم يدفع عن أربابه، وهيهات، فإن العلم أولى أن يحاجه ويضاعف عذابه." (٢)

ومنها – أيضاً– ازدراء الوعاظ والقُصَّاص، وعدم حضور مجالسهم، ويرى ابن الجوزي أن مراد الشيطان "ألا يحضروا في موضع يلين فيه القلب ويخشع."(٣)

وبيَّن ابن الجوزي أنَّ القصص ليس مذموماً كله "فإذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً، فهو ممدوح، وقد كان أحمد بن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صدوق." (٤)

مما سبق يتبين لنا أن الانتقادات التي قدمها ابن الجوزي لفقهاء عصره شديدة الخطورة على وجاهتهم الاجتماعية والعلمية وقبول آرائهم ، ففيها قدح لطريقتهم في التصدي لمسائل العلم ، ومخالطتهم لذوي السلطان والجاه ، وتساهلهم في المعاصي والذنوب كلبس الحرير وأكل الأموال بدون وجه حق ، والغرور بالعلم ...إلخ.

ولا يخفى على ذي لب واع أنَّ في عصرنا هذا من العلماء من يقعون في مثل هذه السقطات المزرية المخزية ، ومن ثم يمكننا القول بأنَّ تعليقات ابن الجوزي على فقهاء عصره تقودنا لضرورة دراسة بعض القضايا التي تتشابه معها في عصرنا الحاضر؛ لعل أهمها :

أولاً : الإفتاء قبل تصور المسألة أو ما يصح أن نطلق عليه الفتوى بغير علم ، وهى آفة عصرنا حيث يندر من يتروى المسألة أو يراجعها أو يُرجع العلم فيها لله وحده ، فما سئل واعظ أو خطيب أو دارس إلا وأدلى حكماً في المسألة .

ثانياً : الافتقار إلى آداب الفتوى والإفتاء .

ثالثاً : ركون الفقهاء إلى الحكام والالتصاق بهم والإفتاء بما فيه مصلحة هؤلاء الحكام أحياناً ، وكذا تبني الفقيه لموقف سياسي معين يؤخذ عليه ، فمثل هذه الأمور تهدم شخصية الفقيه القدوة وتجعله مهجوراً من الخاصة والعامة ، فلا يُقبل من الفقيه أو العالم أن يأكل على كل الموائد لئلا يوثر ذلك على صدوعه بفتواه .

١- انظر: نفسه/ ص١٢٧.
٢- انظر: نفسه/ ص ١٢٧.
٣- انظر: نفسه/ ص١٢٧.
٤- انظر: نفسه/ ص١٢٧.

خاتمة البحث

من أبرز نتائج البحث ما يلي :

أولاً : أنَّ ابن الجوزي عالم موسوعي ، صنف في شتى فنون العلم ، وكان للحديث والفقه في تصانيفه نصيب وافر .

ثانياً : أنَّ ابن الجوزي قدَّم في كتابه (تلبيس إبليس) نقداً لمختلف فئات المجتمع وطوائفه وخاصة العلماء إبان عصره القرن السادس الهجري ، وكان هدفه تنبيه الناس وتحذيرهم من فتن الشيطان وتلبيسه عليهم . وقد اتسم منهجه – في هذا الكتاب – بأنه تكاملي جمع فيه بين التنظير والتطبيق .

ثالثاً : قدَّم ابن الجوزي انتقادات للمحدثين والفقهاء في القرن السادس الهجري ، ومن خلال دراستنا لهذه الانتقادات نجدها تتشابه مع ما يمكن أن نوجهه من ملاحظات على المشتغلين بهذين العلمين في عصرنا الحاضر .

هذا وتوصي الدراسة بالآتي :

أولاً : ضرورة الربط بين العلم والعمل ، وعدم الوقوع في المعاصي والذنوب ومصائد الشيطان ، خاصة إذا كان الإنسان محسوباً على طائفة العلماء والفقهاء ، فإنه ليس مقبولاً منه التفريط في التحلي بآداب العلم .

ثانياً : تقديم دراسات تحليلية لمصنفات ابن الجوزي خاصة ما يتعلق منها بنقده للقرن السادس الهجري . فحبذا لو تم دراسة اتجاهات ابن الجوزي في نقده للمجتمع إبان تلك الفترة ففيها عظيم الفائدة .

وفي النهاية الله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما تعلمنا .

المصادر والمراجع

- أبو الفرج ابن الجوزي وآراؤه الكلامية والأخلاقية ، آمنة محمد نصير ، ط. الأولى ، دار الشروق ، القاهرة سنة ١٤٠٧ه – ١٩٨٧م .
- البداية والنهاية ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤ه ، تحقيق : علي شيري ، ط. الأولى ، دار إحياء التراث العربي سنة ١٤٠٨ه – ١٩٨٨م .
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٤٨ه ، تحقيق : عمر عبدالسلام التدمري ، ط. الثانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤١٣ه – ١٩٩٣م .
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، للسيوطي ت ٩١٤ه ، تحقيق : عبدالوهاب عبداللطيف ، ط . دار الفكر ، بيروت .
- تذكرة الحفاظ (طبقات الحفاظ) ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٤٨ه ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان سنة ١٤١٩ه – ١٩٩٨م .

- التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح ، للحافظ زين الدين العراقي ، ط . المكتبة التجارية لمصطفى أحمد الباز ، مكة المكرمة ، ط . الأولى ، سنة ١٤١٣ه .
- تلبيس إبليس ، ابن الجوزي ت ٥٩٧ه ، تحقيق : أيمن صالح شعبان ، ط . دار الحديث ، القاهرة سنة ٢٠٠٣م .
- سنن أبي داود ، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥ه ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد كامل قره بللي ، ط . الأولى ، دار الرسالة العالمية ، سنة ١٤٣٠ه – ٢٠٠٩ م .
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي ت ٧٤٨ه ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط . الثالثة ، مؤسسة الرسالة سنة ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبدالحي بن أحمد بن العماد العكري الحنبلي ت ١٠٨٩ه ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، ط. الأولى ، دار ابن كثير ، دمشق – بيروت ١٤٠٦ه ١٩٨٦م .
- صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ت ٢٦١ه ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي ، ط . دار إحياء التراث العربي .
- طبقات الحفاظ ، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ت ٩١١ه ، ط . الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت سنة ١٤٠٣ه .
- العبر في خبر من غبر ، الحافظ شمس الدين الذهبي ت ٧٤٨ه ، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، ط . دار الكتب العلمية بيروت .
- لفتة الكبد في نصيحة الولد ، عبدالرحمن ابن الجوزي ت ٥٩٧ه ، ط. المكتبة السلفية ، القاهرة ، دون تاريخ .
- مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر) ، عبدالرحمن ابن خلدون ت ٨٠٨ه ، تحقيق : خليل شحادة ، ط . دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨ه – ١٩٨٨م .
- نزهة النظر في شرح نخبة الفكر ، لابن حجر العسقلاني ، تحقيق : علي حسن الحلبي ، ط . الأولى ، دار ابن الجوزي ، السعودية ، سنة ١٤١٣ه .
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان ت ٦٨١ه ، تحقيق : د . إحسان عباس ، ط . دار صادر – بيروت –لبنان ، سنة ١٩٩٤ م .